

بليلة

للأستاذ محمود محمد شاكر

وكأنها الأشعة الثلاثة ، وكأنها قدر الله ، فذكت حصون الروم ،
وثلت عروش القرس ، ودوخت جبابرة الأمم ، حتى ورنوا أرض
الله وأقاموا فيها الحق والعدل بالميزان والقسط ، وجاءت سلاطهم
فجددت حضارة الدنيا ، وإذا الذين كانوا بالأمس بداءة جفافة غلاظاً
فيما يرى الناس من أهل الحضارات السالفة ، هم الناس وهم الدم
وهم أصحاب الإمرة في كل فن وعلم وسياسة وتدير ملك . إنها
لمعجزة لم يوفها مؤرخ حقها من المجد والقوة والظهور .

فهذا الجيل من عباد الله مطوى على صلاح كثير وخير عظيم
وقوة خارقة ، لا أظن أن الزمن قد ذهب بها ومحقة ، فذلك
أراني وملة قاي الإيمان بأنه سوف ينتهي إلى الناية التي كتبت
له في تاريخ هذه الإنسانية . وعسى أن يكون زمن ذلك كله قد
أتى وأظلم ، فإني أسمع نشيش الحياة وهي تتخلق في مراحل الوجود
وقد أحاطت به النيران المجنونة المتضمرة من كل مكان . ولكن
لا بد لتحقيق ذلك كله من عمل يتولاه رجال من هذه الأمة ،
فينفخون في الصرم حتى تستمر النار الخالدة لتنفى عن هذا الجيل
كل خبث ألم به من أدران الحضارة التي يعيش فيها عالمنا اليوم .
غير أنني أخشى أن يكون الإهمال والمجالة وقلة المبالاة وأخذ
الأمر بالاستخفاف ، مما يفضي إلى فوات الفرصة التي أمكنت ،

لست امراً قاطعاً ولا متشائماً ولا يائساً من خير هذه الأمة
العربية ، بل لمني أشد إيماناً بحقيقة جوهرها وطيب عنصرها
وكرم غرائزها ، بل لمني أشد إيماناً في الإيمان بأنها صائرة إلى
السؤدد الأعظم والشرف السرى والغلبة الظاهرة إن شاء الله ،
وأنها هي الأمة التي أرسدها باري السم رد العقل على هذه
الإنسانية المجنونة في هذه الحضارة الهوجاء . فالعرب مذ كانوا هم
الجوهرة التي أطبقت عليها سحراء الحزرة ، فما زالت تكتمهم في
ضميرها وتمحو عليهم ونعمتهم من كل فساد داخل حتى صفا ماؤهم
ورف شبابهم وأشاؤوا من جميع نواحيهم . فلما جاءهم محمد
ابن عبد الله بشيراً ونذيراً وهادياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ،
صار كل رجل من صحابته نجماً يهتدى به الضال ويأنم به السدد .
وبومئذ تمت المعجزة الكبرى في تاريخ العالم ، فانطلقت هذه الفئة
الصالحة من عباد الله كأنها السيل التدفع ، وكأنها الرياح العاصفة ،

أخطأت ، وقد رأينا ذلك الفاضل^(١) بعد أن جاء هذا الظلام وقد
الأقوام « الناطق عن خواطرهم »^(٢) يبكي (أيا على) في قصائده
طويلاً ، ويمسح أين شوقي ، أين شاعر الإسلام ؟ !
وإذا طال المراء في الشيء الثابت وأراد المجادل أن « يطين
عين الشمس »^(٣) جاء قول شوقي :
ومن الرأي ما يكون نفاقاً أو يكون اتجاهه التضليل
ومن النقد والجدال كلام يشبه البنى والنخى والفضولا
والفتى لا يضع منه رجوعه إلى الحق ، وهو بمد العودة
(محمود) والعود أحمد .

محمد إسعاف النسائي

- (١) الأدب الكاتب الشاعر الأستاذ محمد المهياوى ، رحمه الله !
(٢) قال عبد الرحمن بن علي البيهقي (القاضي الفاضل) : « إن
أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس » .
و (أحمد الثالث) في الشعر هو منبئ الوقت .
(٣) من أمثالهم ، قال البيهقي : يضرب لمن يستتر الحق الجمل الواضح .

ثم إن القلوصفة ذم في موطن وصفة مدح في موطن ، والقائل
هنا هو القائل في (أمين الرافعي) رحمه الله عليهما :
قيل : (غال) في الرأي قلت هبوه قد يكون (القلو) رأياً أصيلاً
وقد بما بنى (القلو) نفوساً وقد بما بنى (القلو) عقولا
والسرف صفة ذم وقد تجدها في أقوال مدحا : « قيل للحسن
ابن سهل : لا خير في السرف ، فقال : لا سرف في الخير » .
وهل القلو في التخلص من الاستعباد مذموم ؟ ونحن معشر
للمصريين منالون وحائنا مع هؤلاء الانجليز منذ اثنتين وخمسين
سنة معلوم ، فكيف لو كنا من المقتصدین المتدلين التسامعين .
كان فاضل معروف من أدباء مدينتنا^(١) هذه قال منذ سبع
سنين مثل قولك في ذلك البيت (ما أشبه الأيلة بالبارحة) ونشر
نقده في جريدة ، ولم يك تلام الفضلاء الكرام ، وقيل له :
(١) أعني (القاهرة) وقد كتب المقالة فاهرياً مصرياً .

ويقضى على هذا الأمل الذى يضى، لنا من بعيد ينادينا إلى ما فيه
خيرنا وخير هذا الناس

ويخيل إلى أننا نميش اليوم في عصر بلبلة واختلاط ، وهذا
شئ . قد أصاب أمما كثيرة من قبلنا ، فلم يعفها ذلك عن إدراك
الغايات التى حرصت على السعى إليها وعلى بلوغها . بيد أنه لا بد
لأمة أرادت أن تخلص من هذه البلبلة أن يتجرد من رجالها
ونسائها فئة لا ترهب في الحق سطوة ولا بطشاً ولا اضطهاداً
ولا تدخر دون مطالبها جهداً ولا عزمة ، ولا يتنهب إخفاق ،
ولا تلتفتها فتنة ، ولا يصرفها الفرح بقليل تناله عن الكدح في
سبيل ما ينبغي أن تناله .

وقد أراد الله لصر أن تكون في هذا العصر قدوة العرب ومجتمع
أمرهم وكعبة قصادهم ، وهذه البلبلة في مصر أشد ظهوراً وغلبة
منها في غيرها من بلاد العرب ، فأخوف ما نخافه أن تظل مصر
غافلة عن شر هذه البلبلة فتمدى سائر العرب بالأسوة والقدوة ،
فينتشر الأمر انتشاراً يعجز المخلصين أن يلموه . فبين ظهرائنا
اليوم ألوف من الطلاب العرب قد جاءوا من كل قطر لينهلوا من
علم مصر ، ويعودوا إلى بلادهم ليجاهدوا في سبيلها ، فإذا أعدتهم
هذه البلبلة فسوف يحملونها معهم إلى بلادهم فيفقدوا المجتمع من
كلمة أممهم ، ويرتكس الأمر حتى يصبح ولا علاج له . هذا ،
وأنت لا تعدم مدى البلبلة في الصحف والكتب والمجلات المصرية
التي أخذت ترداد انتشاراً واتساعاً ، فكيف لا يخشى أن يعم
هذا البلاء كل بلاد العرب ويتنقل في نواحيها ؟ وبومئذ تصبح
طعمة للام الضارية التي تحيط بنا من كل مكان ، ونحمد لنا أنياباً
عصلاً تنهشها يوم يتاح لها أن تنقض على هذه الفريسة التي
لا تدفع عن نفسها .

فمن شر هذه البلبلة ، ما ترى من سوء تدبير الأحزاب
السياسية المصرية ، فهي قائمة على نزاع دائم في سبيل الحكم ،
يكيد بعضها لبعض ، وبأكل بعضها بعضاً ، ولا يرى أحد لأحد
حرمة . وتنشئ هذه الأحزاب صحافة يكون هم محروبيها التشهير
بمن يخالفهم في الرأي والذهب ، فيدلسون الحقائق ، ويكتمون
الحق ، ويقرون على الناس الكذب ، ويلوون سننهم بالحديث
ويحرفون أعمال من يصادونهم تحريفاً لئلا مستهجنات ، كل ذلك
ابتغاء مرضاة رؤساء الأحزاب وأصحاب الأمر فيها . هذا ، على
أن هذه الأحزاب قد نشأت أو أنشئت بغير أهداف مبينة للناس
تعاهدهم على أن تسعى إليها ، وبغير برنامج لإصلاح هذه الأمة

التي لم تجد لها نصيراً من أبنائها ، وبغير نظام ينفي عن الحزب
الدخلاء والمومنين وذوى الأغراض الخبيثة .

ثم يأتي بعد ذلك نوع من الصحافة يتلبس بالورع ، ويتظاهر
بالتقوى ، ويتخضع بالبراءة من القمص ، ويبدى للناس أنه طالب
خير للناس ، وأنه يريد لنفع هذه الأمة وعامل على ترقيتها وتهذيبها
وهو في خلال ذلك يدس لها سمّاً زعاقاً ومنية قاتلة ، شيئاً فشيئاً
ورويداً رويداً وساعة بعد ساعة ، حتى لا تعجز الألسنة لأول
مذاق ، ثم إذا بان طعمه شيئاً لم تستنكره ، ثم يستمر حتى إذا
دام قليلاً ألفته وربت عليه ، ثم إذا زادته شيئاً لم يكن إلا طيباً
مستغماً ، ثم إذا الناس يطلبونه أو يخيل إليهم أنهم يطلبونه لأنه
مما يتصل بأدنى الفرائز الحيوانية والشهوات البهيمية ، ويحشد
لكل هذا الخبث جمع من الكتاب الذين ضلوا عن حقيقة
أنفسهم ، وطائفة من الشباب الذين أفسدتهم المدارس الأجنبية
والجامعات القريبة عن هذه الأمة ، وهذا الضرب من الصحافة
الخبثية هو البلاء المستطير الذي لم يجد إلى اليوم من يكشف عن
طواياه الخبيثة وأساليبه القاتلة ، وعن ديبه في رأى هذه الأمة
المريية ديب الضلالة في قلب الغرير المفتون .

ثم يأتي بعد ذلك كتاب وعلماء ورجال من أصحاب الرأي ،
ليس في قلب أحد منهم تقوى لله ولا خشية للأنثم ولا محبة
للحق ، فيرى أحدهم الرأي الفطير فلا يلبث أن يمسك القلم فيجري
السواد على بياض الورق ، فإذا هي مقالة أو كتاب أو رأى أخبث
منه صاحبه والناطق به ، فيأخذ المبتدئ المتطلع ، فيمتدده كأنه
لقطة نفيسة بغير تحقيق ولا تمحيص ، فإذا سمع رأياً يخالف
ما قرأ لهذا الكاتب البليغ أو الأستاذ الكبير أو الفيلسوف
القدير ، أنكره وأدبر عنه ، فزيده هذا الإنكار لجاجة ، وتزيده
اللاجاجة عناداً ، وعلماء المناد كبراً ، فيعمى عن الحق وهو بين ،
ولا يزال يهوى في المناد حتى يصير ذلك عادة في مسألة بعد مسألة
ورأى بعد رأى ، وإذا هو عند نفسه أكبر من أن يأخذ عن
فلان لأنه يخالفه في الرأي .

وتزيد الدولة هذا الأمر ضراوة واستمراراً ، فتتولى الأمور
غير أهلها ، وتضع الناس في غير منازلهم ، وتكرم فلاناً بالحقانة
بوظيفة كذا لأنه من أشياع الحزب الذى يتولى الحكم ، فإذا
خافت عليه أن يفتزع من مكانه إذا جاءت وزارة أخرى ، ألحقته
بعمل لا يقبل الزل . فإذا جاء وزير للمعارف مثلاً وله أصحاب من
شيعته ممن عرفوا بشئ من الأدب ألحقه بالجمع اللغوى مثلاً

تسمع العجب العاجب من الخلل في موازين الأشياء ، والحيرة المطبقة في تقدير ما يقع تحت أبصارهم وأسماءهم ، والمعجز المضطرب عن ضبط الرأي ، والضعف المطلق عن القيام بحق العقل والإدراك راكبر من ذلك كله أنهم أصبحوا لا يرون صاحب رأى إلا وهو دوسهم ، فلا يسم من انتقاصهم وتقدم ، فإذا صححت لهم وأردت أن تقيمهم على الطريق استكبروا وأعرضوا ، فكيف تأتي أنت فتعلم حامل شهادة الحقوق أو الطب أو الأدب أو الفلسفة شيئاً يستيقن هو في نفسه أنه قد فرغ منه وعلمه علماً ليس بعده إلا العروج إلى سماء الخلود

وكذلك الأمر في طبقات أخرى من العلماء إلى الأدباء إلى رجال القلم إلى أصحاب المصانع إلى عامة الناس . وهذا شيء مخوف مدمر للجهود التي بذلتها طائفة من السلف القريب في تمديد خطى هذا الشعب وترقيته وتهذيبه وتطهيره من الجهل والبلادة والغفلة . وإذا طال ذلك ولم نعالجه في مدارسنا وجامعاتنا وصحافتنا ، وفي دور التسلية ، وفي أندية المجتمع ، فالعاقبة الوخيمة بالمرصاد لمن أهمل وأضاع وترك الأشياء تمضى في غير عتار وعلى غير هدى .

ونحن الآن أحوج ما نكون إلى صحافة جديدة حرة لا تخاف شيئاً ولا تخشى ، تدل على مواضع السبب لا للظن والتشهير وسب هذه الأمة ، بل لملاجئها والدفاع عنها ونصرتها على نفسها . ونحن الآن أحوج ما نكون إلى شباب من الكتاب وشيوخ من المحفكين يخلصون الرأي لهذه الأمة ، فلا يدعون الفرصة تقوت ويحملون الشعلة الجديدة إلى الجيل الجديد الذي لم يلونه العناد والكبرياء واللجاجة والمراء . ونحن الآن أحوج ما نكون إلى طائفة ممن خبروا الحياة وعرفوها ليكونوا شهداء على مدارسنا وجامعاتنا وصحافتنا ، تستعين بهم الدولة على نهج جديد يمنع عن جماهير الشباب وطوائف الأمة كل ما يزيد هذه البلبلة إغلاوا وضراوة إن الزمن يمضي مضاً حثيثاً كالنار في الهشيم ، فإن شئنا أن نحيا وأن نتمد للذي أعدنا الله له من الظهور في الأرض ، وإصلاح ما اختل من شئوننا . فعلى كل قادر أن يجمع أمره ، وأن يدعو أصحابه ، وأن يلم الشعث المتفرق ممن يظن فيهم خيراً ، لكي يتعاونوا جميعاً على رد هذا البلاء بالرفق في ، واضع الرفق ، وبالباأس في مواضع البأس ، وبالبر حيث لا يجدي شيء إلا البر بلا هوادة ولا رحمة ...

محمد محمد شاكر

تكريماً له ، فيريد هذا الرجل أن يحقق معنى هذا التكريم على ما خيلت ، فينبه إلى إبداء الرأي فيما لا يحسن ، ويكشف عن عورة من الجهل لا تستر . ولينها كانت رأياً بدا له فكان صاحبه الأول كلا ، بل هو يعمد إلى آراء أمانتها الذي أمانت الحرافات والأساطير فيخيل إليه أنه وهو الأديب المؤلف الكاتب مستطيع أن يحكي هذه الرمم البالية برأيه وحجته وحسن مرضه ، فكيف تكون مقبة هذا الجهل على شاب ناشئ يقرأ ملتفات السخف المدلس ، وليس عنده قدرة على تمحيصه .

ويأتي آخر يليه وزير صديق مثلاً على كرسى الجامعة ليدرس العلم لطلاب العلم ، فإذا هو عازم على أن ينشئ علماً جديداً لطلابه ، فيبحث في تحاريب عقله عن أشياء يخيل إليه أنها فن جديد وبلاغة جديدة وعلم لم يصل إلى إدراكه سابق ولن يناله لاحق إلا بالتأني عنه والوقوف بين يديه . ويخرج هذا الأستاذ جيلاً من مساكين الطلاب لا يحسنون شيئاً إلا التعصب له والتمسك باسمه والتشبّه به في فساد الرأي وقلة العلم وضعف الملكة . ويجتمع منهم ومن شيخهم فئة تهجم على العلم بغير علم ، فإذا أراد أحد أن يقف في سبيلها تناهت باسم حرية الرأي وحرمة الجامعة . فكيف تكون العاقبة إذا خرج مثل هؤلاء على الشباب الناشئين بأمثال آرائهم المقيتة الجاهلة ، وعلى رأس كل منهم تاج مكتوب عليه « دكتور في الآداب » أو « دكتور في الفلسفة » أو « دكتور في التاريخ » ؟ وكيف يسلط هؤلاء على عقول ناشئة العرب ، يفتنهم بالألقاب والأسماء ، ويتعاون هذه الفئة المضللة على نصرة بعضهم لبعض ؟ فإذا بقي الأمر على ما نرى في أمر زعمائنا ، وفي أمر سياستنا ، وفي أمر اجتماعنا ، وفي أمر أدبنا ، وفي أمر صحافتنا ، وفي أمر مدارسنا وجامعاتنا : فكيف نرجو أن نصل إلى غايتنا ؟ وكيف يتاح لهذه الشعوب العربية الكريمة أن تتأهب للمبركة الفاصلة في تاريخ العرب ؟ وكيف تجتمع كلمة العرب على بلوغ الهدف الأعظم ، وهو هدف يرى إلى انقاذ الإنسانية كلها من ردة الخبال التي ألقت بها فيها حضارة ضخمة ، ولكنها قد حشيت شراً كثيراً وخيئاً ؟

ولو شئنا أن نتقصى ظواهر هذه البلبلة في أشياء كثيرة مما يترس لها الشعب مرغماً أو مريداً أو غمدوعاً لأطلنا ، فإنا من شيء إلا وقد اختلط فيه الأمر على غير هدى . وإذا شئت أن تقدر سوء ما جئنا من شرها ، فبالس من شئت من طوائف الشباب وجاذبهم الحديث ، واستدرجهم إلى المناقشة في رأى أو علم أو فن ،